

قائمة المصادر والمراجع:

- 1 . إبراهيم فوزى، كتاب السودان بين يدي غردون وكتشنر، دار الكتب و الوثائق القومية ، مصر .
- 2 . قميوثي ميتشل، إستعمار مصر، ترجمة بشير السباعي، احمد حسان، مدارات للابحاث والنشر، 2012م .
- 3 . داود بركات، السودان المصري ومطامع السياسة البريطانية ، مؤسسة هنداوى للثقافة والنشر، القاهرة.
- 4 . حسن احمد ابراهيم (بروفيسر) تاريخ السودان الحديث، دار النشر التربوى، السودان، 1986م.
- 5 . سلاطين باشا، السيف والنار، مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة، مصر، القاهرة، 2012م.
- 6 . شوقي الجمل، (دكتور) وعبد الله عبد الرازق، (دكتور) تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، دار الثقافة للنشر، القاهرة، 1997م.
- 7 . عبد الرحمن الرافعى، مصر والسودان في أوائل عهد الإحتلال، دار المعارف، مصر، 1983م.
- 8 . عبد الفتاح عبد الصمد منصور (دكتور) العلاقات المصرية السودانية في ظل الإتفاق الثنائي، الهيئه المصرية العامة للكتاب.
- 9 . عصمت حسن زلفو، شيكان تحليل عسكري لحملة هكس باشا، شركة كررى للطباعة، الخرطوم.
- 10 . مكي الطيب شبيكة (بروفيسر) السودان عبر القرون، دار الجيل، بيروت، 1991م.
- 11 . مكي الطيب شبيكة، (بروفيسر) وادى النيل بين ثورتين، محاضرات معهد الدراسات الإضافية، جامعة الخرطوم ، 1965م
- 12 . محمد فؤاد شكري، مصر والسيادة على السودان، دار الفكر العربي ، مصر.
- 13 . محمد محمود السروجى (دكتور) دراسات في تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، جامعة الاسكندرية، 1998م.
- 14 . محزون ، ضحايا مصر في السودان، مطبعة السفير الاسكندرية، 1935م.
- 15 . ميمونة ميرغنى حمزة (بروفيسر) تاريخ السودان الحديث 2، نشر جامعة السودان المفتوحة، 2007م.
- 16 . موسي عبد الله حامد، الثورة المهدية والعلاقات السودانية المصرية، بحوث المؤتمر العالمى لتاريخ المهدية، جامعة الخرطوم، دراسات في تاريخ المهدية، تحرير عمر عبد الرازق النقر، 1981م.
- 17 . نعيم شقير، تاريخ السودان، تحقيق محمد ابراهيم ابوسليم، دار الجيل بيروت 1980م.

النظم: نظرية نحو المعاني

(دراسة بلاغية ونحوية ولغوية)

EL-NAZM: (Meanings Grammar Theory Rhetorical Grammatical Linguistically)

أستاذ مساعد
كلية إفريقيا الجامعية - سابقاً

د. سامي حامد طيب الأسماء دفع الله

مستخلص:

إنَّ أكمل ما أنجزته نظرية النظم توجيه الدّراسة النّحوية إلى جوانب جمالية، تركيبية ترصد العلاقات الدلالية المتفاعلة في الجملة ونسقها المعنوي في الظاهرة اللغوية، وقد قامت نظرية النظم التي ابتدعها الجرجاني على أسس وركائز أهمها: الأساس النحوي، والعلاقة بين اللغة والفكر والانسجام؛ وتمثل هذه المراكز المنهج الفكري للجرجاني. تهدف هذه الدراسة إلى إعداد منهج لغوي متكامل لفهم النظريات البلاغية والنحوية واللغوية برؤية متكاملة لا تفصل بين هذه العلوم بل تثبت أنها نظرية لغوية مركزية واحدة، وتأسيس منهج دراسي متكامل لطلاب الدراسات العليا، واستحداث وسائل جديدة لتدريس نظرية النظم مناصفة مع تدريس نظريتي السياق والعامل، وتبين وإثبات أن نظرية النظم هي المنهج الأوّل في التحليل البنيوي للنص وفق رؤية تستمد قواعدها من ارتباط البلاغة بالمعاني النحوية، وقد انتهج الباحث المنهج الوصفي التحليلي، مع المنهج المقارن التقابلي. ويتبدّى ذلك جلياً في تحليل العلاقات التركيبية المختلفة بين الجملة الواحدة، أو الجمل في طرق تأدية المعنى، فيتناول المعنى الوظيفي في السياق أو التركيب للوصول إلى المعنى الدلالي كما أوصت الدراسة بتدريس نظرية النظم بوصفها (نظرية نحو المعاني)، على ألا تدرس بمعزل عن نظرية العامل، والنظرية السياقية، ونظرية تضافر القرائن، والنظرية التوليدية والتحويلية؛ لما التمسته الدراسة من عُسر وتعقيد فهم هذه النظريات حين تدرس بمعزل عن بعضها بعضاً، مقارنةً بيسر وسهولة إدراك كنهها عند دراستها مجتمعة ومتسلسلة، إضافةً للفائدة المرجوة من النظرة الشاملة لعناصر النظرية اللغوية الحديثة، ومدى نضجها واكتمالها، وما يعتورها من نقصان وقصور، وبذا تكتمل الفائدة، وتتضح الرؤية، لتفسير الغموض الذي يحيط بهذه النظريات.

الكلمات المفتاحية: النظم، التعليق، المعنى، الترتيب، التخيّر.

EL-NAZM: (Meanings Grammar Theory) Rhetorical Grammatical Linguistically

Abstract:

The most comprehensive achievement of EL-NAZM Theory is directing grammatical study to ornamental and structural aspects counting indicative relations interactive in the sentence and its meaning form in the linguistically phenomenon. EL-NAZM Theory, first innovated by Aljirjani, is based on the following important bases: Grammatical base, relation between the language, intellect and harmony. These bases represent the intellect methodology of Aljirjani. This study aims to prepare comprehensive linguistically methodology to understand rhetorical, grammatical and linguistically theories with comprehensive vision confirming that they are one central linguistically theory rather than separate sciences. It also aims to establish comprehensive curriculum for graduate students' studies and create new methods for teaching EL-NAZM Theory equally with teaching Context and Amil Theories. The study also aims to explain and prove that EL-NAZM Theory is the first methodology in the structural analysis of the text based on vision deriving its principles from connection of rhetoric with grammatical meanings. This is explicitly shown in analysis of various structural relations between one sentence(s) in methods of explaining the meaning by taking the functional meaning in the context or structure to find out the indicative meaning. The researcher had taken the analytical descriptive methodology with the comparative methodology (confronting). The study also recommended teaching EL-NAZM Theory as Meanings Grammar together with Amil Theory, Contextual Theory, Theory of Transformational index and Clues Coalesce Theory for difficulty and complexity in understanding these theories when teaching them separately compared with easy understanding of their meanings when teaching them together sequential in addition to the contemplated benefit from the comprehensive view of the elements of the modern linguistically theory, extent of its maturity and completeness, deficiency and default. Therefore, full benefit will be gained and vision will be clear for interpreting ambiguity surrounding these theories.

Key words: EL-Nazm, Interrelatedness, Meaning, Order, Choice .

المقدمة:

لقد حاولت الدراسات المختلفة في مجال الفكر اللغوي الوصول إلى رأي في كنه البيان القرآني، وإلى السرّ البديع في نظمه ودقة وصفه؛ دراسات أقامها اللغويون والمتكلمون والنحاة والنقاد والمتفلسفة من القدماء والمحدثين، وقد نتج عن هذه الجهود اكتشاف نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني ووضع ثلاثة علوم تمثل هذه الاتجاهات وهي: البيان والمعاني والبديع، وهذه العلوم يجمعها إطار مشترك هو "العلاقة بين الاختيار الأسلوبي بكونه رمزاً وبين المعنى" (1).

يهدف هذا البحث إلى إيجاد منهج متكامل لفهم النص العربي، وتبيان القدرات التفسيرية للنحو والبلاغة والعلوم اللسانية مجتمعة، وتبيان أن دراسة النظريات البيانية وفهمها لا يتم بمعزل عن دراسة النحو والظواهر اللغوية كالسياق والقرائن، وأن نظرية النظم قيمة بتحقيق هذه الغايات. مشكلة البحث:

لم يستنبط اللغويون أسساً واضحة للنظرية اللغوية العربية بل ذهبوا مذاهب شتى بعدت بها الشقة بين النحو والنظم والمعنى، وهذه الدراسة تحاول الإجابة عن سؤال مهم مفاده ما علاقة النحو بالمعنى؟ وما علاقة النظم باللفظ والمعنى، وما الأسس التي قامت عليها نظرية النظم والقواعد التي تتحقق بها القدرات التفسيرية لهذه النظرية؛ لتُميط اللثام عن رؤية أتت لتثبت نظرية (نحو المعاني). وقد جاءت أهداف هذا البحث عامدةً إلى إيجاد منهج متكامل لفهم النص العربي، وتبيان القدرات التفسيرية للنحو والبلاغة والعلوم اللسانية مجتمعة، وتبيان أن دراسة النظريات البيانية وفهمها لا يتم بمعزل عن دراسة النحو والظواهر اللغوية كالسياق والقرائن، وقد قُسم هذا البحث إلى مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة ونتائج وتوصيات ثم مصادر ومراجع البحث، وقد جاء المبحث الأول بعنوان (النظم لغةً واصطلاحاً)، والمبحث الثاني حمل عنوان (النظم عند عبد القاهر الجرجاني)، أما المبحث الثالث فقد جاء بعنوان (ركائز نظرية النظم)، وأخيراً حمل المبحث الرابع عنوان (دلالات التراكيب النحوية والسياقية).

١ (ينظر ابن جني، (الخصائص)، باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني وباب قوة اللفظ لقوة المعنى، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٣، ١٩٨٦، ج ٢، ص ١٥٤ و ج ٢ ص ٢٦٧.

المبحث الأول: النظم لغةً واصطلاحاً :

أولاً / النظم لغةً :

ورد في معجم العين: "نَظَّمَ: النَّظْمُ نَظْمُكَ خَرَزًا بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ فِي نِظَامٍ وَاحِدٍ، وَهِيَ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى قِيلَ: لَيْسَ لِأَمْرِهِ نِظَامٌ؛ أَي: لَا تَسْتَقِيمُ طَرِيقَتُهُ. وَالنِّظَامُ كُلُّ خِيَطٍ يُنْظَمُ بِهِ لَوْلُو أَوْ غَيْرُهُ فَهُوَ نِظَامٌ" (2). فالنظم إذا عند الخليل هو جمع الأشياء ووضعها في نظام واحد.

وفي صحاح العربية: "نَظَّمْتُ اللَّوْلُوَ أَي: جَمَعْتُهُ فِي السُّلْكِ، وَالتَّنْظِيمُ مِثْلُهُ، وَمِنْهُ نَظَّمْتُ الشَّعْرَ وَنَظَّمْتُهُ" (3). مَّا يَعْنِي التَّرْتِيبَ وَالْجَمْعَ.

يقول ابن فارس: "النون والطاء والميم أصل يدل على تاليف شيء ... نظمت الخرز نظماً، ونظمت الشعر وغيره، والنظام: الخيط يجمع الخرز" (4).

ويقول ابن منظور: "نَظَّمَ: النَّظْمُ: التَّأْلِيفُ نَظْمَهُ يَنْظُمُهُ نِظْمًا وَنِظَامًا، وَنَظْمُهُ فَاتَنْظَمَ وَتَنْظَمَ، وَنَظَّمْتُ اللَّوْلُوَ: أَي جَمَعْتُهُ فِي السُّلْكِ، وَالتَّنْظِيمُ مِثْلُهُ، وَمِنْهُ نَظَّمْتُ الشَّعْرَ وَنَظَّمْتُهُ، وَنَظَّمَ الْأَمْرَ عَلَى الْمَثَلِ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَرْنَتَهُ لِأَخْرَ أَوْ ضَمَمْتُ بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ فَقَدْ نَظَّمْتُهُ، وَالنَّظْمُ الْمُنْظُومُ وَصِفَ بِالْمُصَدِّرِ، وَالنَّظْمُ: مَا نَظَّمْتَهُ مِنْ لَوْلُو وَخَرَزٍ وَغَيْرِهِمَا. وَنِظَامٌ كُلُّ أَمْرٍ: مَلَكَه، وَالْجَمْعُ أَنْظَمَةٌ وَأَنْظِيمٌ، وَنَظْمٌ وَالْأَنْظَامُ الْأَتْسَاقُ" (5). وَفِي التَّعْرِيفَاتِ: "النَّظْمُ فِي اللُّغَةِ جَمْعُ اللَّوْلُو فِي السُّلْكِ" (6).

ثانياً /النظم اصطلاحاً :

اهتم علماء البلاغة القدماء ببلاغة القرآن وإثبات إعجازه، وبيان عظمتهم وتبيين أسرارهم؛ ومن هنا جاء اهتمامهم بمصطلح النظم، فألفوا كتباً عديدة تتضمن عناوينها كلمة النظم، مثل كتاب أبي عبد الله محمد بن زيد الواسطي (306) المسمى (إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه)، وقد شرح الجرجاني كتاب الواسطي مرتين؛ ويبدو أنه وجد فيه ما يوافق فكرته الجوهرية للنظم بوصفه إعجازاً للقرآن، يقول محمد نايل: "إن موضوع الكتاب - يقصد كتاب الواسطي - هو خصائص النظم القرآني التي تظهر جانب الإعجاز فيه، كما أن عبد القاهر الجرجاني قد شرح هذا الكتاب شرحين؛ أحدهما صغير، والآخر

٢ () الخليل بن أحمد الفراهيدي، (معجم العين)، تح: مهدي المخزومي، وإبراهيم

السامرائي، مكتبة الهلال، د.ط، د.ت، ج ٨، ص ١٦٥، مادة «ن ظ م» .

٣ () الجوهري، (تاج اللغة وصحاح العربية)، تحق: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم

للملايين، بيروت - لبنان، ط ٣، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م، ص ٢٠٤١، مادة «ن ظ م» .

٤ () ابن فارس، (معجم مقاييس اللغة)، مادة «ن ظ م» .

٥ () ابن منظور، (لسان العرب)، مادة «ن ظ م» .

٦ () الشريف الجرجاني، (معجم التعريفات)، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر

والتوزيع، القاهرة، ص ٢٠٣.

كبير، فلولا أن الشيخ وجد في الكتاب ما يوافق نظمه ما شرحه مرتين“ (7).
أما أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (388هـ) فقد استطاع أن يقدم صورة لأسباب الجمال في التركيب، فتناول الظاهرة البينانية مبرزاً تميز الكلمات وما تحملها من دلالة؛ وبذلك يكون قد نظر إلى العمل الأدبي نظرة أسلوبيّة تُبين أثر الجزئيات في البناء الكلي، ويُخصّص الخطابي فكره اللغوي مبيناً سر الإعجاز عنده بإيجاز شديد في المعنى واللفظ والنظم، يقول: “وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظٌ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم” (8).
ويستخدم الباقلاني (403هـ) مصطلحات النظم والتأليف والرصف والرتبة، للتعبير عن فكرة النظم بقوله: “ولقد تأملنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه على حد واحد في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه، ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا” (9).
كما يأتي تعريف النظم عند الزمخشري أنه “حُسْنُ التأليف، وجودة التركيب، وحُسْنُ الوصف” (10). وأورد الشريف الجرجاني أن النظم هو “تأليف الكلمات والجمل مرتبة المعاني متناسبة الدلالات، على حسب ما يقتضيه العقل، وقيل: الألفاظ المرتبة المسوقة المعبرة دلالاتها ما يقتضيه العقل” (11).
والنظم أيضاً هو “التأليف الشعري عامة الذي يلتزم قواعد متواضع عليها من حيث الوزن خاصة والعروض عامة،... وقد يعني النظم قرض الشعر” (12).
إلا أن هذا المصطلح لم تكتمل دلالاته إلا في القرن الخامس الهجري على يد عبدالقاهر الجرجاني (ت 471هـ) الذي أقام دعائمه وأركانها. وتعريف النظم عند عبدالقاهر الجرجاني “هو تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض” (13).
ومما سبق فالنظم هو الضم والجمع على نحو مخصوص؛ فهو يُشبه الخيط الجامع للؤلؤ في التعريف اللغوي، وفي الاصطلاح: هو الترتيب والتناسق الرابط والجامع بين الألفاظ والمعاني.

- ٧ () محمد نايل أحمد ، (نظرية العلاقات أو النظم بين عبدالقاهر الجرجاني والنقد الغربي الحديث)، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة، ط ١ ، ١٩٨٩م، ص ١٤.
- ٨ () الخطابي أحمد بن محمد بن إبراهيم ، (بيان إعجاز القرآن) ، تحقق: محمد خلف الله ، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف ، مصر ، ثلاث رسائل، ص ٢٤.
- ٩ () الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد (إعجاز القرآن) ، تحقق: السيد أحمد صقر ، دار المعارف، مصر ، (د.ت) ص ٥٦.
- ١٠ () الزمخشري، (أساس البلاغة)، شرحه وعلّق عليه: محمد أحمد قاسم، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ط ١ ، ٢٠٠٣م، ص ٨٦٠.
- ١١ () الشريف الجرجاني، (معجم التعريفات) ، ص ٢٠٣.
- ١٢ () مجدي وهبة، وكامل المهندس، (معجم مصطلحات العربية في اللغة والأدب)، مكتبة لبنان، ط ٤ ، ١٩٨٢م، ص ٤١٤.
- ١٣ () عبدالقاهر الجرجاني، (دلائل الإعجاز) ، ص ٢٠٣.

المبحث الثاني: النظم عند عبدالقاهر الجرجاني:

كان البحث في وجوه الإعجاز القرآني سبباً في إثارة قضية النظم، واستأثرت باهتمام كثير من علماء اللغة والبيان، حتى خصَّها بعضهم بمؤلفات مفردة، حاولوا عبرها إبراز جمالية النظم القرآني في وجه شبهات المبطلين.

وقد حضَّ أبو هلال العسكري الناس على تعلُّم الفصاحة والبلاغة كأدوات لمعرفة القدرات الإعجازية في القرآن الكريم يقول: "إن أحق العلوم بالتعلم وأولها بالتحفظ بعد معرفة الله جل ثناؤه، علم البلاغة ومعرفة الفصاحة، الذي يعرف به إعجاز كتاب الله تعالى... وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبلاغة التركيب"⁽¹⁴⁾. وما حسن التأليف وبلاغة التركيب إلا النظم.

لم يكن النظم قبل عبدالقاهر الجرجاني يرقى إلى مستوى النظرية، ولم يكن محيطاً بألوان البلاغة كافة، ولم يشمل جميع التعبيرات، وإنما كان تنفّاً متفرقة هنا وهناك لا يجمعهما رابط ولا ينظمها سلك، ولم تكن عماداً يرتكز عليه في الأسلوب والتعبير.

ورغم ذلك فقد كانت نظرية النظم عند الجرجاني تتويجاً لمباحث البلاغيين والمتكلمين في مسألة اللفظ والمعنى عبر العصور، إذا لم تكن نظرية النظم التي وضعها الجرجاني وليدة الصدفة أو اللحظة؛ بل كانت جهوداً فكرية متواصلة، شارك فيها العلماء والباحثون - كما جاء سابقاً في هذا البحث - في مجال الفكر والمعرفة، يقول وليد مراد: "إلا أن جهودهم هذه لم تتخذ منهجاً علمياً إلا على يدي عبدالقاهر الجرجاني في نظرية النظم التي يرى فيها صورة الإعجاز القرآني مع حقيقة العلاقة الرابطة بين اللفظ والمعنى، واللغة والفكر بكونها علاقة عضوية قائمة، يمكن إدراكها بالفكر والذوق"⁽¹⁵⁾.

لقد تحدّدت معالم النظم واتضحت قسماتها على يد عبدالقاهر الجرجاني دون غيره؛ لأنَّ النظم قبل عبدالقاهر لم يكن مقصوداً عن عمد أو مدروساً بطريقة مباشرة، وإنما هو شئ عفوي نابع من ملاحظات العلماء حين يؤخّذون بجمال الشعر أو الإعجاز في القرآن الكريم في داخل هذا النطاق فحسب، أمّا عند عبدالقاهر فهو عمل مدروس، ومحور يدور حوله كتابه "دلائل الإعجاز" كله، وهو القصد من تلك الدراسة الواسعة التي نهضت على أكتاف النحو وعلى تماسك لبناته حتى إنه يرجع كل جمال في النظم إلى مراعاة أحكام النحو.

المبحث الثالث: ركائز نظرية النظم

لقد قامت نظرية النظم مرتكزة على أربعة ركائز رئيسية؛ والركيزة الأولى هي ما أسماه ترتيب المعاني في النفس ثم النطق بالألفاظ على حذوه، وإحكاماً لهذه الركيزة يميز عبدالقاهر بين نظم الحروف ونظم الكلم، وبهذا يتفاضل البلغاء، أمّا الركيزة الثانية فهي فكرة التعلق؛ فالألفاظ كما يراها الجرجاني لا توضع متجاورة دون تعلق بعضها ببعض، وإنما يرتبط بعضها ببعض بعلاقات نحوية لا يتم بدونها

١٤ () أبو هلال العسكري، (كتاب الصناعتين)، ص ١.

١٥ () وليد محمد مراد، (نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبدالقاهر الجرجاني)، ص ٦.

كلام ولا يفهم حديث، ولما كان تعلق الألفاظ بعضها ببعض لا يكفي، حتى يختار لكل لفظ موقعه المناسب، ولا تستطيع إزالته عنه أو نقله إلى موقع آخر دون أن تفسد النظم وتذهب بالمزية والقيمة البلاغية؛ كانت الركيزة الثالثة وهي تخيير الموقع؛ يقول الجرجاني: "وهل يقع في وهم وإن جهد أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية، وأن تكون حروف هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية، وأن تكون حروف هذه أخف وامتزاجها أحسن، ومما يكد اللسان أبعد؟ وهل تجد أحدا يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعد مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعنى جارتها وفضل مؤانستها لأخواتها" (16).

وإذا كانت الألفاظ ترتب حسب ترتيب المعاني في النفس بحيث يتعلق بعضها ببعض، وتقع موقعها الملائم من النظم فلا بد من وسيلة لمعرفة الفروق الدقيقة التي تكون بين نظم ونظم، والتي يقع بها التفاوت ويكون بها التفاضل، وهذه الوسيلة الكاشفة مردها إلى "علم النحو" وهو الركيزة الرابعة من ركائز نظرية النظم.

الركيزة الأولى ترتيب المعاني في النفس ثم النطق بالألفاظ على حذوها: أبان الجرجاني في أول كتابه (دلائل الإعجاز) أن هدفه من تأليفه هو تمكين الدارس من وضع يده على الخصائص والمزايا التي تعرض في الكلام، حتى يفضل بعضه بعضاً، ثم يتعاطم ذلك الفضل حتى يبلغ حد الإعجاز الذي يسلب أبواب البلغاء، فتتحسر دونه مطامعهم، فيقرّون جميعاً بالعجز. يقول: "ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة، وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد بها، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء، والإشارة في خفاء، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب، وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج، وكما يفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلكه، وتوضع لك القاعدة لتبنى عليها، ووجدت المعول على أن ههنا نظاماً وترتيباً، وتأليفاً وتركيباً، وصياغة وتصويراً، ونسجاً وتحبيراً، وأن سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجاز فيه، سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها، وأنه كما يفضل هناك النظم والنظم، والتأليف والتأليف، والنسج والنسج، والصياغة والصياغة، ثم يعظم الفضل، وتكثر المزية، حتى يفوق الشيء نظيره والمجانس له درجات كثيرة، وحتى تتفاوت القيم التفاوت الشديد، كذلك يفضل بعض الكلام بعضاً، ويتقدم منه الشيء، ثم يزداد فضله ذلك ويترقى منزلة فوق منزلة، ويعلو مرتبة بعد مرتبة، ويستأنف له غاية بعد غاية، حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع، وتحسر الظنون، وتسقط القوى، وتستوي الأقدام في العجز" (17).

إن ترتيب الألفاظ عند الجرجاني منوط بترتيب المعاني؛ فإذا ترتبت المعاني جاءت الألفاظ مرتبة على نسقها من غير استئناف نظر جديد يقول الجرجاني: "فلا يتصور أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن

١٦ (١٧) عبد القاهر الجرجاني، (دلائل الإعجاز)، ص ٤٤.

١٧ (١) المصدر السابق، ص ٣٤-٣٥.

(١٩) المصدر السابق، ص ٥٣-٥٤.

(٢٠) المصدر السابق، ص ٣٢٧.

تعرف معناه، ولا أن تتوَحَّى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً، وأنك تتوَحَّى الترتيب في المعاني وتُعمل الفكر هناك، فإذا تمَّ لك ذلك أتبعتهما الألفاظ وقَفَوْتَ بها آثارها، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك، لم تحتج إلي أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدْمٌ للمعاني، وتابعةٌ لها، ولا حقة بها، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس، علمٌ بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق“ (18).

والجرجاني في موقفه من اللفظ لم يتحيز للمعنى كلياً؛ وإنما كان يعتقد بتلازمهما نظراً لطبيعة الوظيفة الدلالية التي يقدمهاها معاً للكشف عن الصورة داخل النص؛ ” إذ لا يعقل أن يقصد أولاً إلى ترتيب المعاني في استقلال عن اللفظ، ثم بعد ذلك يستأنف النظر في الجملة الدالة عليها، يقول الجرجاني: “ ولا يقصد إلى ترتيب الألفاظ وتواليها على نظام خاص في استقلال عن الفكر، ويمكن هنا الترتيب للألفاظ يقع ملازماً للمطلوب الأول، وهو المعنى المدلول عليه في الصورة“ (19).

انطلق عبد القاهر من ثنائية اللفظ والمعنى وما ترتب عنهما من مبالغات في تفضيل الواحد عن الآخر، وكانت من أبرز المسائل التي اعتنى بها في كتابه (20)، وكيف لا واللفظ والمعنى أساس الظاهرة اللغوية، وجوهر الكلام من حيث تألفهما وتوافقهما في المفردة الواحدة أو أكثر من ذلك تركيباً. وقد توصل الجرجاني إلى أن وحدات اللغة ألفاظ، وبفضل النحو تستعمل الألفاظ لتشكل التراكيب، وهي تتجدد دائماً بفضل النحو ولإعادة تراكيبها؛ وبالتالي فالألفاظ عند الجرجاني رموز للمعاني، والإنسان يتعرف على مدلول اللفظ المفرد أولاً، ثم يتعرف على مدلوله داخل التركيب فالألفاظ سمات لمعانيها، يقول: “ ولا يمكن أن تسبق الألفاظ معانيها، وهل كانت الألفاظ إلا من أجل معانيها؟ وهل هي إلا خدم لها؟ ومصرفة على حكمها؟ أوليست هي سمات لها، وأوضاع قد وضع لتدل عليها؟ كيف يتأتى أن تسبق المعاني أو تتقدمها في تصور النفس وإن جاز ذلك جاز أن تكون أسامي الأشياء قد وضعت قبل أن عرفت الأشياء، وقبل أن كانت، وما أدري ما أقول في شيء يجر الذاهبين إليه إلى أشباه هذا من فنون المحال، وردى الأحوال“ (21).

والجرجاني يجعل المزية في النظم للمعاني وليس للألفاظ؛ بل إن الألفاظ في ذلك تبعٌ للمعاني، فهي تترتب تلقائياً بحسب الترتيب الذي تنشأ عليه المعاني في النفس، ولا يحتاج المتكلم أن يفكر مرتين: مرة في ترتيب المعاني، وأخرى في ترتيب الألفاظ، وإنما ينحصر تفكيره في المعنى.

لقد فرق الجرجاني بين نظم الكلام ونظم الحروف، يقول: “ فنظم الحروف هو تواليها في النطق فقط، وليس نظمها بمقتضى عن المعنى، ولا الناظم لها بمقتضى في ذلك رسماً من العقل، اقتضى أن يتحرى في نظمها لها ما تحراه، فلو أن واضع اللغة كان قد قال: ربض، مكان ضرب، لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد، أما نظم الكلام فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتضي في نظمها آثار المعاني و ترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظمٌ يعد فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق“ (22).

١٨

١٩

٢٠ كتاب (دلائل الإعجاز) ، وكتاب (أسرار البلاغة).

٢١ الجرجاني، (دلائل الإعجاز) ، ص ٣٧٩.

٢٢ المصدر السابق ، ص ٩٣.

النظم: نظرية نحو المعاني - (دراسة بلاغية ونحوية ولغوية)

فالألفاظ المفردة لا مزية فيها وإنما تعليق بعضها ببعض، وجعل بعضها سبب لبعض ، وتأليفها وترتيبها بحسب ما يقتضيه علم النحو هو المزية وحسن السبك والانسجام. وإيضاحاً لهذه الفكرة يميز عبد القاهر بين نظم الحروف ونظم الكلم، فيقول: "وَمَا يجب إحصاءه في هذا الفصل الفرق بين قولنا: حروف منظومة وكلم منظومة، وذلك أن نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا النظم لها يحقق في ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمها ما تحراه، وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك؛ لأنك تقتضي في نظمها آثار المعاني، وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس فهو إذن نظم يعد فيه حال المنظوم بعضها مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق" (23). ومن ثم يصبح كل اختيار لترتيب دون تركيب له مغزاه ومدلوله وخواصه التي يفقدها إذا تغير الترتيب، فالعلم بمواقع هذه الألفاظ علم بمواقع معانيها في نفس المتكلم، ومن ثم لا بد أن تلتبس هذه المزية والفضل داخل التركيب على النحو الذي أريد له أن يكون، وقد مضى عبد القاهر يطبق ذلك في مواضع كثيرة من كتابه.

وليس المقصود بنظم الألفاظ مجرد تناوبها في النطق كما هي الحال في نظم الحروف، إذا لاستوي الناس كلهم في العلم بحسن النظم ورداءته؛ لأنهم جميعاً يحسنون بتوالي الألفاظ في النطق إحساساً واحداً، ولكن المقصود به تناسق دلالاتها وتلاقي معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل.

إن نظم الكلام ليس في توالي الألفاظ في النطق؛ بل في تناسقها واتساق دلالاتها، وتلاقي معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل (24)، ويقبله المنطق؛ إذ لا يمكن أن يتصور أن للفظه تعلق بلفظة أخرى من غير أن يعد حال معنى هذه مع معنى تلك، ويراعى هناك أمر يصل إحداها بالآخرى (25).

إن فاعلية جمال النص لا تتحقق إلا بكون اللفظ وعاءاً يتشكل به المعنى، وليس له أي فاعلية جمالية للنص مهما كانت في تناسق أصواته وصحة معناه مفرداً، كما لا يمكن أن يكون به شكل من الإعجاز لوحده وهذا ما يؤكده عبد القاهر يقول: "واعلم أننا لا نأبى أن تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلاً فيها يوجب الفضيلة، ونأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز وإنما الذي ننكره، ونقبل رأي من يذهب إليه أن يجعله معجزاً به وحده ويجعله الأصل والعمدة" (26).

وأدرك الجرجاني أن الألفاظ لا تفاضل بينها من حيث أنها ألفاظ مفردة منفصلة، بل التفاضل يحدث عند ملائمة معناها لمعنى اللفظة التي تليها في السلسلة اللغوية، وهذا يجري على سائر الكلام وتحدث المزية كلها فيه.

يقول الجرجاني: "فكما أنه لا تكون الفضة أو الذهب إلا خاتماً أو سواراً أو غيرهما من أصناف الحلي بأنفسهما، ولكن بما يحدث فيهما من الصورة، كذلك لا تكون الكلم المفردة التي هي أسماء وأفعال وحروف كلاماً وشعراً، من غير أن يحدث فيها النظم الذي حقيقته توحي معاني النحو وأحكامه" (27).

كما أبان الجرجاني أن ترتيب الألفاظ في النطق يجري على ترتيب المعاني في النفس، وأن العملية فكرية

٢٣ () المصدر السابق، ص ٤٩.

٢٤ () ينظر: المصدر السابق، ص ٤٩-٥٠.

٢٥ () ينظر: المصدر السابق، ص ٤٠٦.

٢٦ () المصدر السابق: نقلاً عن التفكير البلاغي عند العرب. حمادي صمود. ص ٤١٩.

٢٧ () ينظر: المصدر السابق، ص ٤٨٨.

محضة وتتم في نفس الوهلة حين تخرج في صورة أدبية بليغة وتامة البيان. وربما لا يُتصوّر أنَّ الألفاظ المفردة لا يقع بينها تفاضل من حيث هي ألفاظ مفردة ومجردة دون أن تدخل في تركيب أو تأليف، ولكن ذلك لا ينفي أنَّ للألفاظ المختارة فضل في معنى النظم وجمال التأليف، فالرأي المنصف أنَّ النظم أو التركيب، يحسن بالألفاظ العذبة السلسة، ويقبح بالألفاظ القبيحة الخشنة، ثم إنَّ الألفاظ الحسنة تزداد جمالاً وحسناً بحسن موافقتها لما جاورها من الألفاظ، فيكشف التجاور عمّاً فيها من حسن وجمال.

حدّد الجرجاني معاني الألفاظ التي يولدها السياق، داخل الصياغة اللغوية من خلال ما صرّح به قائلاً: ”ينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخباراً وأمرًا ونهيًا واستخبارًا وتعجبًا، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة، هل يتصور أن يكون بين اللفظين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناه الذي وضعت له من صاحبها على ما هي موسومة به“ (28).

ويمكن حصر معاني الألفاظ التي يولدها السياق كما صرح بها الجرجاني فيما يلي:
- ينبغي أن ينظر إلى الكلمة المفردة قبل دخولها في التأليف؛ وهذا يعني المعنى المعجمي.
- تؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة؛ وهذا يعني المعنى الوظيفي (معاني النحو + سياق المقام + الأسلوب + الوزن... إلخ).
- تفاضل اللفظين في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له من صاحبها على ما هي موسومة به؛ ويعني بذلك المعنى الدلالي وهو المعنى الحاصل الذي يصل إليه القارئ جملة واحدة. وهنا يحصل التفوق والإبداع والتميز عند الجرجاني في نظريته إلى المعنى عن سابقه من البلاغيين والنحويين.

وخلاصة الأمر فليس نظم الكلم أن توالى ألفاظها في النطق بل أن تحقق دلالتها كملاً لغوياً، وأن تتناسق معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل؛ فاللفظة إن حققت مزية النظم صلحت لأن معناها معروض على الطريق، ولكن دلالتها تشق على النفس الاجتهاد.
وجملة الأمر أن اللفظة لا تحقق البعد التصوري البليغ مقطوعة من الكلام التي هي فيه، لكن بما تتواصل مع معناها بمعنى ما يليها من ألفاظ.
الركيزة الثانية التعليق ودلالة الوحدات السياقية:

لقد قادت الجرجاني فكرة ترتيب الألفاظ حسب ترتيب المعاني في النفس إلى فكرة أخرى تُعدّ ركناً من أركان نظريته وهي فكرة التعلق النحوي؛ فالألفاظ لا توضع متجاورة دون تعلق بعضها ببعض، وإنما يرتبط بعضها ببعض بـ “علاقات نحوية” لا يتم بدونها كلام ولا يفهم حديث، يقول: “وإعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشك أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يتعلّق بعضها ببعض، وتجعل هذه بسبب من تلك، هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس” (29).

ويؤكد الجرجاني في نظريته في النظم أنه لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلّق بعضها ببعض، وبينها بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك، إذ عبّر عن فكرة نظام اللغة حيث ترتيب الكلام في

٢٨ () المصدر السابق ، ص ٤٧.

٢٩ () المصدر السابق ، ص ٥٥.

النفس، ثم انتقاء كلمات عدة، وهذا الترتيب يخضع لقواعد اللغة وفق الدلالة العقلية للكلمات(30). ففكرة النظم عند الجرجاني هو تصور العلاقات النحوية كالعلاقة بين المسند والمسند إليه، ونظر الجرجاني للكلمة قبل دخولها التأليف وقبل أن تصير كلمة لها معنى الإخبار أو الأفراد أو التعجب، ورأى أنها في حالة الأفراد تفقد خصوصيتها، ورأى أن الألفاظ سمات لمعانيها، ولذا لا يتصور أن تسبق الألفاظ معانيها، وذلك ضرب من المحال(31).

ويقول مبيناً طرائق التعلق النحوي: "معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلام بعضها من بعض، والكلام ثلاث: اسم وفعل وحرف. وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام: تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بهما"(32)، فاللغة عند عبد القاهر ليست مجموعة متجاوزة من الكلمات، بل هي شبكة مترابطة من العلاقات لكل علاقة منها دلالتها وخصوصيتها. وإذا كانت اللفظة لا تكتسب معناها ولا خصوصيتها في التعبير إلا بضمها إلى أخوات لها وتعلق بعضها ببعض وعلى نحو مخصوص؛ فإن ذلك يستتبع أن يكون لاختيار موقع الكلمة دوراً أساسياً فيما النظم على نظم من مزية وفضل.

لقد استعمل الجرجاني لفظة التعليق؛ ليشير إلى التأليف والصياغة والبناء والوشي والتخبير والنسج بين أجزاء الكلم، وكلها ألفاظ من جنس التماسك والانسجام الواقع في الكلام الواحد الناتج عن تعلق معانيه بتناسق ألفاظه بعضها ببعض داخل مقام مشترك ومتماسك. إذاً التعليق عند الجرجاني هو النظم؛ يقول في أول صفحة من دلائل الإعجاز: "معلوم أن ليس النظم سوى تعلق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض"(33).

وتأتي أهمية العلاقات السياقية عند الجرجاني في توفير استقامة الكلام، وما يقوم بين معانيه من وشائج تجعل دلالتها متناسقة ومعانيها متلاقية يقول: "ليس من عاقل يفتح عين عقله إلا وهو يعلم ضرورة أن المعنى في ضم بعضها إلى بعض، وتعليق بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من يضع، لا أن ينطق بعضها في إثر بعض من غير أن يكون فيما بينها تعلق، ويعلم كذلك ضرورة إذا فكر أن التعلق يكون فيما بين معانيها، لا فيما بينها أنفسها"(34).

إن السياق هو ما يسبغ المزية على اللفظة المفردة التي تفقد قيمتها الفنية عند الأفراد، فإذا ما ضمها السياق تكون فيه عضواً فاعلاً شكلاً ومعنى؛ فيتفعل دورها في خلق البناء اللغوي والفني، وذا لا يكون بضم كلمة إلى أخرى؛ وإنما يتمكن عملية التعليق التي تساعد في اكتمال البناء اللغوي؛ لأن التعليق هو الذي "يتيح للصياغة أن تتشكل في مستويات دلالية مختلفة، فتأتي الإفادة اللطيفة"(35). إن اتساق النظم، وجودة سبكه، وتلاحم أجزائه يُتفاضلُ عنده بين الأدباء، وتتميز به الأشعار؛ لأن

٣٠ ينظر: المصدر السابق، ص ٥٤.

٣١ ينظر: المصدر السابق، ص ٢٨٩ - ص ٢٩٠.

٣٢ المصدر السابق، ص ٤.

٣٣ المصدر السابق، ص ٩٣.

٣٤ المصدر السابق، ص ٤٦٦.

٣٥ محمد عبدالمطلب، (جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم)، لونجمان: الشركة المصرية العالمية للنشر، ط ١، ١٩٩٥م، ص ٣١٥.

النظم: نظرية نحو المعاني - (دراسة بلاغية ونحوية ولغوية)

” أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه إفراغ إفراغاً واحداً، وسُبكي سبكاً واحداً، ويجري على اللسان كما يجري على الدهان“ (36)، وذلك لا يكون إلا باجتماع كل المقاييس الأسلوبية“ (37)، ”من بلاغة اللفظ“ (38)، و”إصابة معاني الكلام“ (39)، و”اختيار شريفها وكريمها“ (40)، و”أن تكون التشابيه مصيبةً تامّةً“ (41)، و”التأليف بديعاً مخترعاً بعيداً عن الاستكراه والاضطراب“ (42)، بحيث تتضام المعاني، ولا يتقطع نظامها إلى درجة أنك إذا سمعت صدر البيت عرفت قافيته“ (43)، فالنظم هنا تنضيد متقن، وحرفة مبدعة، وتناسق بديع، ونسيج يأخذ بالألباب، وتألّف المسامع.

إن التواءم والتلاؤم والاتساق يقوم في نظرية النظم على وجود علاقات قائمة على نظام إيقاعي يركز أساساً على حسن التأليف والنظم ”ولعل أبرز مظاهر النظم في بنية التشبيه إنما تبدو من خلال علاقات المقارنة بين أطراف متميزة تربط فيما بينها الأداة ملفوظة أو مقدرة، وهذا لا يتم إلا من خلال روابط لغوية نظامية محكمة الدلالة لمشاركة أمر لآخر في معنى، من هنا لا تبقى الأداة وسيلة للجمع أو للتقريب الذهني بين هيئتي الحركة والشكل؛ لأن تفاعلات الدلالات الإيحائية للطرفين من خلال السياق قد يضفي على المعنى - بحسب نوع الأداة - تفاعلاً بين الأطراف يختلف من صورة تشبيهية إلى أخرى“ (44).

وعلى ذلك تكون اللفظة المفردة ميتة لا حياة فيها لوحدها، فإن وصلها المبدع الحاذق، والصانع الماهر، والفنان الخالق بأخواتها في التركيب ووضعها في موضعها من الجملة، دبّت فيها الحياة، وسرت فيها الحرارة، وظهر عليها اللون (45)، فالسياق يعطي اللفظة المفردة حقيقتها وروحها (46). ربّما يمكن القول إن التعليق نظرية تركيبية محكمة، ورغم ذلك فإن النحاة المتأخرين لم يحاولوا الانتفاع

- ٣٦ () أبو عثمان الجاحظ، (البيان والتبيين) ، ج ١، ص ٦٧ .
- ٣٧ () حمّادي صمّود، (التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوّره إلى القرن السادس«مَشروع قراءة») ، منشورات الجامعة التونسية، تونس، ١٩٨١م، ص ٢٩٦ .
- ٣٨ () أبو عثمان الجاحظ، (البيان والتبيين) ، ج ١، ص ٨٣ .
- ٣٩ () المصدر السابق ، ج ١، ص ٥٨ .
- ٤٠ () المصدر السابق ، ج ١، ص ٨٣ .
- ٤١ () أبو عثمان الجاحظ، (الحيوان) ، ج ٣، ص ٣١١ .
- ٤٢ () المصدر السابق ، ج ٧، ص ٦ .
- ٤٣ () أبو عثمان الجاحظ، (البيان والتبيين) ، ج ١، ص ١١٥-١١٦ .
- ٤٤ () ابتسام أحمد حمدان، محمد أحمد الحسين ، (نظم الصورة التشبيهية في شواهد من شعر الهذليين) ،مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها«فصلية محكمة» ،دمشق، العدد ١٣، ربيع ١٣٩٢هـ-٢٠١٣م، ص ٤-٥ .
- ٤٥ () أحمد حسن الزيات، (دفاع عن البلاغة) ،عالم الكتب، ط ٢، ١٩٦٧م، (د.م)، ص ٩٦-٩٧ .
- ٤٦ () مصطفى صادق الرافعي، (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) ،راجعه وضبطه: محمد سعيد العريان، الصحوة للنشر والتوزيع القاهرة، ط ١، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م، ص ٢١٦ .

النظم: نظرية نحو المعاني - (دراسة بلاغية ونحوية ولغوية)

بها؛ ويعلل مصطفى حميدة ذلك بقوله: "لأن النحاة حين وجدوها - أي نظرية التعليق - تنطلق في دراسة بناء الجملة من المعنى إلى المبنى، وتُعن في درس المعنى إمعاناً، ظنوها تتناول بالدرس علماً جديداً أطلقوا عليه اسم (علم المعاني)، وصرفوا نظرهم عنه لمن شاء الخوض فيه من أصحاب البلاغة، وقد كان الأولى بهم أن يجعلوا تلك النظرية منطلقهم، وأساس منهجهم" (47).

وعليه فمنهجية التعليق المنطلقة من دراسة المعنى أولاً ثم المبنى أنتجت علم المعاني؛ الذي يُعدُّ أحد أسس الدراسة التركيبية للجملة، وهو أيضاً يمثل الجانب المعنوي في درس بناء الجملة، ولو حاول النحاة تطوير هذا الجانب لبلغ النحو شأواً عظيماً.

الركيزة الثالثة تخير الموقع: وهنا يأتي الركن الثالث من أركان نظرية النظم وهو "تخير الموقع" فتعلق الألفاظ بعضها ببعض لا يكفي، حتى يختار لكل لفظ موقعه المناسب، ولا تستطيع إزالته عنه أو نقله إلى موقع آخر دون أن تفسد النظم وتذهب بالمزية والقيمة البلاغية.

وإذا كانت الألفاظ ترتب حسب ترتيب المعاني في النفس بحيث يتعلّق بعضها ببعض وتقع موقعها الملائم من النظم فلا بد من وسيلة لمعرفة الفروق الدقيقة التي تكون بين نظم ونظم، والتي يقع بها التفاوت ويكون بها التفاضل، وهذه الوسيلة الكاشفة مردها إلى "علم النحو".

وفكرة النظم إذا تقوم على الألفاظ ولا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلمات مفردة، ولكنها تتفاضل في ملاءمة معانيها للمعاني التي تليها في السياق الذي وردت فيه، وأن اللفظة قد تروق وتحسن في موضع، وتثقل وتوحش في آخر، وأن التامين والنظم هو وحده الذي يحدّد ملاءمة الكلمة وعدم ملاءمتها بالنسبة لما قبلها وما بعدها (48).

يقول الجرجاني في أهمية النظر إلى موقع الكلمة: "وهل يقع في وهم أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم بأكثر من تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية، أو أن تكون حروف هذه أخف، وامتزاجها أحسن، وهل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعدّ مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جارتها؟، وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (49)؛ فتجلي لك منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع، أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرية إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلمة بعضها ببعض، وإن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة وهكذا إلى أن تستقر بها إلى آخرها، وإن الفضل تناج ما بينها، وحصل من مجموعها" (50).

ويواصل قائلاً: "وإن شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة من تؤدّيه وهي في مكانها من الآية؟ قل (ابلعي) واعتبرها وحدها من غير أن تنظر

٤٧ () مصطفى حميدة، (نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية)، المقدمة ص ٣.

٤٨ () ينظر : مقدمة الجرجاني، (دلائل الإعجاز)، مقدمة المحقق :محمد عبدالمنعم خفاجي، مكتبة القاهرة ،ص ٢١ وما بعدها.

٤٩ () سورة هود ، الآية (٤٤).

٥٠ () ينظر : عبدالقاهر الجرجاني، (دلائل الإعجاز)، ص ٩٣ وما بعدها.

ما قبلها، ولا إلى ما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها، وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض، ثم أمرت، ثم في أن كان النداء بيا دون أي نحو يا أيتها الأرض ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال: ابلعي الماء، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو شأنها نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثم أن قيل: (وغيض الماء)، وجاء الفعل على صيغة فعل - المبني للمجهول - والدالة على أنه لم يعض إلا بأمر أمر، وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقديره بقوله تعالى: (وقضي الأمر) ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو (استوت على الجودي)، ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما شرط الفخامة والدالة على عظم الشأن، ثم مقابلة قيل في الخاتمة بقيل في الفاتحة، أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤها بالإعجاز روعة، وتحضرها عند تصورك هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في المنطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟“ (51).

إن تحليل عبدالقاهر الجرجاني للآية الكريمة أعلاه يوضح منهجه في تحليل النصوص؛ إذ يقوم على أساس مفهومه للغة، فإذا كان عبد القاهر قد اعتبر أن سر الجودة والرداءة في أي عمل أدبي كامن في خصائص فنية معينة في صياغتها، فإنه بذلك يردنا إلى المنهج اللغوي الذي يشتق أحكامه من طبيعة العلاقات التي تتولد من دلالات الصياغة اللغوية وفاعليتها الخاصة.

الركيزة الرابعة: تَوْخِي معاني النحو :

إن خصائص النظم عند الجرجاني هي جزء لا يتجزأ من معاني النحو؛ وعلى أساس من هذا المفهوم الناضج للنحو وعلم المعاني طبّق عبد القاهر نظريته في تحليل النصوص واستخراج مكوناتها، إذ إن الإعجاز لا يتأتى إلا عن طريق النظم، فسرّ الجمال إذا يعود إلى ترتيب الألفاظ، وتناسق الدلالات، واستخدامها على نحو خاص ويُدرَك ذلك كله بالذوق.

المبحث الرابع: دلالات التراكيب النحوية والسياقية:

أتى عبدالقاهر الجرجاني فوجد عامة المحدثين والفقهاء قد زهدوا في النحو؛ لما وجدوه ممزوجاً بالمنطق، وهجره لما عزّ عليهم الاستفادة منه، فوجّه إليهم اللوم والعتاب، إذ إن إعجاز القرآن الكريم بالنظم، وما النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله؛ يقول الجرجاني: ”واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسِمَت لك فلا تخل بشيء منها، فينظر الناظم في الخبر... وفي الشرط والجزاء... وفي الحال... فيعرف لكل من ذلك موضعه، ويجئ به حيث ينبغي له“ (52)، وهذا النظم هو الذي يجعل الكلام حسناً يشهد له أصحاب البلاغة بالفضل، وعندما تسمعه تراك قد ارتجت واهتزت واستحسننت“ (53).

إن للتركيب النحوي معنى أول يدل على ظاهر الوضع اللغوي، وله معنى ثان، ودلالة إضافية تتبع المعنى الأول، وهذا المعنى الثاني وتلك الدلالة الإضافية هي المقصد والهدف في البلاغة، يقول عبدالفتاح شاهين: ”وقد جهد عبدالقاهر وشقي في الوصول إلى ذلك الغرض، حتى خرج بقاعدة لا

٥١ () المصدر السابق، ص ٩٣ وما بعدها.

٥٢ () ينظر : عبدالقاهر الجرجاني، (دلائل الإعجاز) ، ص ٨١-٨٢ .

٥٣ () ينظر : المصدر السابق، ص ٨٥ .

النظم: نظرية نحو المعاني - (دراسة بلاغية ونحوية ولغوية)

تتخلف، وقانون لا يقبل النقض؛ وهو أن دقة النظم، والبلاغة، والبراعة، والبيان، كامنة في معاني النحو، ومطوية في التركيب اللغوي“ (54).

إذا فالمعاني الإيحائية التي ترسلها الألفاظ تتسق مع البناء الهندسي لها، وتوحي معاني النحو تتجلى الصورة بما فيها من آيات الجمال.

ثم ينتهي عبد القاهر بعد ذلك إلى الغاية التي وقف عليها وهي أن إعجاز القرآن في نظمه على نحو مخصوص ناشئ من معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه، فيقول: “إذا ثبت الآن ألا شك ولا مزية في أن ليس النظم شيئاً غير توحي النحو وأحكامه فيما بين معاني الكلم ثبت من ذلك أن طالب دليل الإعجاز من نظم القرآن إذا هو لم يطلبه في معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه، ولم يعلم أنها معدنه وموضعه ومكانه وأنه لامستنبط له سواها وألا وجه لطلبه فيما عداها غار نفسه بالكاذب من الطمع ومسلم لها إلى الخداع“ (55). إذا أسبغ الجرجاني على التعقيد النحوي دثار الشمولية، ولم يعد الدرس النحوي محض قواعد وتطبيقات؛ بل هو تضام بين المفردات، وإعجاز بتوحي معاني النحو، وأصبحت القواعد تؤدي دورها المنوط في تفسير النص وبيانه، وقد اتخذ الدرس النحوي بعد الجرجاني مساراً آخر وشكل تياراً عظيماً لا يزال مثار الدرس والبحث.

وَمَا سَبَقَ فَإِنَّ الجرجاني نظر إلى أن الفكر لا يتعلّق بمعاني الألفاظ نفسها، وإنما بما بين المعاني من علاقات؛ وبذلك كانت نظرية النظم عملية توفيق بين الشكل المادّي للصياغة، والجانب العقلي للمعنى عبر الاستعانة بالنحو وتحويله إلى أحداث.

جعل الجرجاني من النظم وسيلة لفهم البيان القرآني، واستغل لذلك طاقات اللغة والفنون البلاغية في ضوء الانضباط النحوي لتشكيل مادة فنية ألا وهي النظم، ومتخذاً شواهد قرآنية وشعرية للإثبات ما جاء به، وكتابه ”دلائل الإعجاز“ هو الشارح لها ضمنه دون الإفصاح عنها (، فهذه النظرية لم تأت من العدم، وإنما تخضعت عقب رحلة علمية طويلة وشاقة، ميّزتها سعة ثقافة عبد القاهر وتنوعها، هذا الاتساع دال على انتفاعه بالدراسات القرآنية والأدبية والنقدية والبلاغية التي سبقتها.

وخلاصة ما يقرره عبد القاهر الجرجاني: أنه لا فضل بين الألفاظ ومعناها، ولا بين الصورة والمحتوى، ولا بين الشكل والمضمون في النص الأدبي، وأن البلاغة في النظم لا في الكلمة مفردة ولا في مجرد المعاني، وأن الباحث عن الإعجاز عليه أن يتتبعه في النظم وحده، وأن النظم هو توحي معاني النحو وأحكامه وذوقه ووجوهه في ما بين معاني الكلم؛ إذ إن المهم عند الجرجاني معرفة مدلول عبارات النحو لا العبارات نفسها، ويرى الجرجاني أن الاستعارة وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النحو، ولا يُنكر الجرجاني تعلق الفكر بمعاني الكلم المفردة أصلاً، ولكن الفكر لا يتعلّق بمعاني الكلم مجردة عن معاني النحو، والخلاصة أن النظم ليس شيئاً غير توحي معاني النحو فيما بين الكلم، ومعاني النحو تابعة لترتيب المعاني في النفس لتحقيق الدلالة أو ما يسميه الجرجاني معنى المعنى.

٥٤ (عبد الفتاح لاشين، (التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر)، دار المريخ

للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، (د.ت)، ص ٤.

٥٥ (يُنظر: محمود نحلة، (في البلاغة العربية) «علم المعاني»، دار العلوم العربية بيروت، ط ١،

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م، ص ١٩-٣٩.

الخاتمة :

إنَّ جهود العلماء في قضية اللفظ والمعنى لم تكتمل إلا في القرن الخامس الهجري على يدي عبدالقاهر الجرجاني؛ إذ جمع شتات تلك الآراء، ووحد بينها في إطار منظم، ثم وضع الخطوط ورسم الحدود، وجعل التقسيمات وأبرز المعالم، ثم أرجعها إلى أسس علمية في نظم الكلام، فجاء منهجه اللغوي فيها واضحا (56).

لقد اعتمد عبد القاهر الجرجاني في تحليل الكلام على توجه عقلي مسبق، وأسس معرفية واضحة تيسرت له باعتقاد مطلق مفاده "أن قضايا العقول هي القواعد والأسس التي يبنى عليها، والأصول التي يرد ما سواها إليها" (57)، فنجح في تطوير فكرة النظم، واتخذها سبيلا إلى تحليل أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز معاً.

أمَّا نظرية المعاني فلقد عالجها الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) بكونها قائمة على فكرة النظم الذي عرفه بأنه توخي معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام (58)، إنَّ مرد الإعجاز عند الجرجاني ليس في معانيه فحسب؛ لأنَّ المعاني لا تتصور من غير الألفاظ، وإنما السبيل الذي يمكن فهم الإعجاز فهو فكرة النظم التي يمكن أن تشيع لكل ما سبق، وهي تقوم على تعلق الكلم ببعضه ببعض، ومن خلال إدراك هذه العلاقات تظهر المعاني الإضافية، فضلاً عن المعنى الأصلي (59).

النظم قبل عبد القاهر لم يكن مقصوداً عن عمد أو مدروساً بطريقة مباشرة، وإنما هو شئ عفوي نابع من ملاحظات العلماء حين يؤخذون بجمال الشعر أو الإعجاز في القرآن الكريم في داخل هذا النطاق فحسب، أمَّا عند عبد القاهر فهو عمل مدروس، ومحور يدور حوله كتابه "دلائل الإعجاز" كله، وهو القصد من تلك الدراسة الواسعة التي نهضت على أكتاف النحو وعلى تماسك لبناته حتى إنه يرجع كل جمال في النظم إلى مراعاة أحكام النحو.

إنَّ نظرية الجرجاني بتوخي معاني النحو تهدف إلى رصد اللغة والكلام في أرقى استعمالاتها مما جعل دراساته أقرب إلى الدرس الأدبي والفني؛ إذ لم يرد الجرجاني تجديد النحو ولا هدم ما أصله النحاة قبله؛ فهو لم يأت بالحجج والبراهين لدحض آراء سابقيه بل أكد في كتابه (العوامل المائة) (60) نظرية العامل التي اعتمدها النحويون؛ لذا كانت هذه الدراسة هي الجسر الذي ربط الدرس اللغوي بالنقد، وكان علم المعاني هو العلم الذي يمكن أن يُسمي بالنحو الإبداعي، أو نظرية الكمال اللغوي.

التوصيات: يقترح الباحث أن يتم تدريس نظرية النظم بوصفها (نظرية نحو المعاني)، على ألا تدرَّس بمعزل عن نظرية العامل، والنظرية السياقية، ونظرية تضافر القرائن؛ لتكتمل الفائدة، وتتضح الرؤية، ولتفسير الغموض الذي يحيط بهذه النظريات.

٥٦ () وليد محمد مراد، (نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبدالقاهر

الجرجاني)، دار الفكر ، دمشق، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٥.

٥٧ () الجرجاني ، (أسرار البلاغة) ، ط.إسطنبول. ١٩٥٤. ص٣٤٥. نقلا عن حمادي صمود

التفكير البلاغي عند العرب. ص٤٣٨ .

٥٨ () ينظر: شوقي ضيف: (البلاغة تطور وتاريخ) ، دار المعارف، القاهرة، ط٩، د.ت، ص١٦٨.

٥٩ () ينظر: يوسف أبو العدوس، (مدخل إلى البلاغة العربية: علم المعاني - علم البيان - علم البديع)، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمَّان -الأردن، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م، ص٣٦.

٦٠ () عبدالقاهر الجرجاني ، (العوامل المائة النحوية في أصول العربية) شرح الشيخ : خالد الأزهرى الجرجاوي (ت ٩٠٥هـ:)، تح: البدر اوي زهران، ط٢، دار المعارف، القاهرة ، (د.ت).